

ألهذا أسس سعادته حزبه؟

أحمد عيد مراد

الزميل أحمد عيد مراد صحافي متمرس، أسس أكثر من مجلة في كندا، وله باع طويل في الشعر والأدب عامة، والصحافة خاصة. أرسل إلى الفينيقي هذه المادة التي نقلها من كتاب وليم مكلور طمسون [William McClure Thomson] مبشر بروتستنتي، كان مع (دانيال بلس-Daniel Bliss) أحد مؤسسي (الكلية السورية الإنجيلية) عام 1866، (الجامعة الأمريكية في بيروت - AUB) حالياً. عنوان الكتاب: (الأرض والكتاب - The Land and the Book) طبع للمرة الأولى سنة 1857 وأصبح المرجع الأساس في الولايات المتحدة عن سورية والأراضي المقدسة. بقيت مبيعات هذا الكتاب الثانية بعد كتاب "كوخ العم طوم" لمدة طويلة.

وُلد طمسون في مدينة سبرنج داييل في ولاية أوهايو سنة 1802، وتوفي في مدينة دنفر في ولاية كولورادو سنة 1894. وقد طمسون إلى بيروت سنة 1933 مبشراً إنجيلياً، وعاصر أحداثاً مهمة، منها (المذابح الطائفية) في الأربعينيات والستينيات من القرن التاسع عشر.

أمضى طمسون ما يزيد على الثلاثين عاماً في سورية. حال اللبنانيين الذين يصفهم في كتابه - في جبل لبنان - لم يتغير، ما يدفعنا إلى السؤال: "أليس لتغيير هذا الحال أسس سعادته حزبه؟"

"في لبنان أربع مئة ألف نسمة، يتجمعون في أكثر من ست مئة بلدة وقرية وخرية تعيش فيها معاً ديانات ومذاهب مختلفة، وتُمارسُ خرافاتها المتضاربة بجوار ضيق. لكن أفراد الشعب لا يلتحمون بموطن متجانس، ولا يؤلون بعضهم بعضاً مشاعر الأخوة. السنّيون يكفرون الشيعة، وكلا الاثنين يكرهان الدروز، وهؤلاء الثلاثة يحترقون النصيرية. والموارنة لا يؤلون أحداً مشاعر الحب، وهم - في المقابل - مكروهون من الجميع. والأرثوذكس لا يطبقون الكاثوليك الشرقيين، وجميع هؤلاء يكرهون اليهود. وما ينطبق على هؤلاء هو نفسه بالنسبة إلى المجموعات الصغيرة في تلك البقعة. فلا رابط مشترك يوحدهم. وليس في المجتمع طبقات راسخة متواصلة ممكن العمل من خلالها للمصلحة العامة للجميع. بل توجد أعداد كبيرة من التفتت والأخطاء والأحواز التي تمكن الجماهير من التّطاحن في فوضى لا طائل تحتها، وتكمن في كل منعطف يمكن تخيله من عداء الواحد لآخر. الروح الكلية التي حضنت الفوضى البدائية هي الوحيدة القادرة على استنباط نظام من هذه الفوضى، وتحويل تلك العناصر المتضاربة إلى سلامٍ ووثام.



DR. W. M. THOMSON

يُمكنُ افتراضُ عدم وجود دولةٍ فيها مثلُ هذا التعدد من الأجناس العداية. لذا يكمنُ العائقُ الأكبرُ بوجه

تقدّم أوضاعهم وسلوكهم وطموحاتهم، وتحسينها بصورة عامّة ودائمة. من المُستحيل جمع هؤلاء في شعب واحد متحد، أو إجماعهم على أيّ هدف ديني، أو سياسي ذي أهميّة تُذكر. لذا، لسوف يُقون ضعفاءً وغير قادرين على حكم أنفسهم، ومعرضين للغزو والاضطهاد من الأجانب. هكذا كان الحال، وهكذا هو الآن. وهكذا، لسوف يستمرّ ليقبوا شعباً منقسماً وموزعاً ومغلوباً على أمره”.

هذا نصُّ الكاتب طمسون. وما يلي بعض ما علّق عليه الزميل مراد:

هل هذا الوصف ما يزال ينطبق على لبنان القرن الواحد والعشرين! اللهم نجنا من أنفسنا. فبمواطنين فيه يرصون بذلك، لا حاجة للبنان لأعداء.

عندما يتوقّف الزمن في حياة الشعوب والأمم، ويتحوّل الوطن إلى كانتونات وإقطاعات من الأفضل والأجدر لبنيه شدّ الرّحال إذا ما يسّوا من تغيير الحال.

لا بأس أيضاً من إلقاء نظرة خاطفة على الأوضاع العربيّة عامّة، ومنها ما يجعل لبنان مع ما فيه من مأخذ وما يعج فيه من فوضى سياسيّة، واحة في متاهات البيداء العربيّة. إنّ الزعيم أو القائد أو الرّئيس -تعددت الأسماء والحاكم واحد - عندما يُغيّب الموت إذا لم يُفض عليه بانقلاب عسكريّ، يكون وارثه الابن جاهزاً لاغتلاء (كرسيّ العرش، وحمل الصّولجان) الذي غالباً ما يسيل دمًا. ولا يختلف عنه في التّوريث رؤساء “عشائر” النظام الطائفيّ اللبناي. هذا (الحاكم المغوار) لا يتردد في إحضار خبراء الأمن (CIA) والحماية من دول الغرب للحفاظ على شخصه وحكمه، ويرسل البعثات لتدريب رجال مخابراته على أحدث طرق المراقبة والتّجسس والتّعذيب التي غالباً ما تنحصر بمراقبة أبناء الشعب (وتأديبهم)، وتتركّ الوطن عرضةً للنهب والسلب واستباحة حدوده.

من المفارقات المضحكة المبيكة أنّ أدبيات الأحزاب الطائفيّة والمذهبيّة والإقطاعيّة بلا استثناء، في لبنان خاصّة، تدعي أنّ ثروته الحقيقيّة تنحصر في موارده البشريّة (الإنسان) التي هي الأساس في تعزيز مسيرة التنمية الشاملة، ورفع مستويات النّمّو والتّقدم في شتى المجالات. وهذا في الواقع أبعد ما يكون عن الحقيقة حين ينتقل الأمر من القول إلى الفعل. شباب لبنان اليوم، بعد انسداد الطّرق أمامهم، ليس لهم إلاّ الهجرة.